

الجماعية، يسجل أن «شواهد الأدب الشعبي أنفس من غيرها في هذا المضممار لندرة ما فيها من التزويق اللفظي والتعقيد المعنوي والنفاق الاجتماعي» (ص. 10).

يضعنا هذا الشاهد أمام مفهوم جديد لـ«الصدق» يختلف كل الاختلاف عن نظيره الذي نجده عند القدماء الذين اتهموا السيرة الشعبية بالاختلاق والكذب. وإذا كنا قد رأينا المدافعين عن السيرة الشعبية يواجهون في النقطة السابقة المستشرقين، نجدهم هنا، ينافحون عن أدب الشعب ضد المعترضين من المثقفين العرب الذين يرتكبون خطأين شائعين في تصديهم للمهتمين بالأدب الشعبي وضمنه السيرة الشعبية.

يرد عبد الحميد يونس على هذين الخطأين موضحا كون الأول يبدو في زعم الزاعمين أن دارسي الأدب الشعبي يريدون تغليب اللهجات العامية على الفصحى، وكون الثاني كامنا في اعتبار الأدب الشعبي أدبا جماعيا لا غير. بخصوص الخطأ الأول يوضح يونس أن الأمر لا يتعلق بتغليب اللهجات ولكن بدراسة الأدب الشعبي تماما كما تدرس باقي الآداب. وحول جماعية الأدب الشعبي يبرز أنه يندرج فيه أدب الآحاد والأفراد كما يندرج فيه أدب جماعات وشعوب. ويبين أن الخطأين يرجعان إلى موقف مسبق من الشعب!، ويرصد التحولات الطارئة مستتجا أن الوسائط التي تعمل على تسوية العقلية العامة والذوق العام، تنزع نحو «الديمقراطية الأدبية». وهذه الوسائط لم تحقق ذلك إلا بفضل تطور الطباعة والصحافة التي خلقت ذوقا عاما لا يختلف لدى الخاص أو العام.

إن عبد الحميد يونس كان دقيقا في رصده للتحولات، وفهم روح العصر، من خلال تأكيده أن الديمقراطية الأدبية وليدة العصر الحديث الذي تعددت فيه الوسائط باستعمال الصورة والصوت، وهنا يشير إلى التلفزة والمذياع وآلة التسجيل والسينما، وكان من آثار هذه الوسائط أن تذوق الفن لم يبق مقتصرًا على فئة دون أخرى (ص 11)، وأنه «مع مرور الزمن ستزول الفوارق بين اللهجات، ويندمج الأدبان الشعبي وغير الشعبي...» (ص 11). ويلاحظ أن أدباء الخاصة الآن صاروا ينشئون الأنواع الشعبية الأدبية، وينشد لهم المغنون ويتحاور بكلامهم الممثلون. كما أن بعض الأدباء الشعبيين ارتقى بفنه وصناعته فبهر العوام، وفتن